هذه القصص.. قطع من عقلي ومن قلبي..

إحسان

القـرآن

كانـت القريـة الصغيـرة قد تعودت في كل شـهر من شـهور رمضان، أن تستضيف مقرئًا من القاهرة، يحيي فيها ليالي رمضان بتلاوة القرآن ويتباهى به أهل القرية على أهالي القرى المجاورة..

وكان سـيد القرية هو الـذي يدفع أجر المقرئ، ونفقـات إقامته.. ولكن السـيد أضرب منذ عامين عن دعوة المقرئ احتجاجًا على انتزاع ستين فدانًا من أرضه، استولى عليها الإصلاح الزراعي..

وفـي العـام الماضي اجتمع أهـل القرية، في شـبه مؤتمـر صغير لبحث موضوع دعوة مقرئ من القاهرة.. وقال حمدان ساخطًا:

- دي بلدنا ما كانش لها قيمة إلّا في رمضان.. دي البلاد كلها كانت تتلم حوالينا علشـان يسمعوا الشيخ عبد الباسط.. حانودي وشنا فين السنة دي.. ده حتى رمضان ما يبقالوش حس!!

وقال المعلم قورة الحانوتي:

- كفاية عليكم السنة دي الراديو..

وصرخ عوضين الخولي:

- راديو.. راديو إيه يا عم.. ده حتى حرام!

مادة محمية بموجب حقوق النشر

وقال فرج اللّـه :

- ما نروح نكلم البيه، يمكن يغير رأيه ويجيب لنا الشيخ عبد الباسط!

وقال فتوح:

- مـا هـو إذا كان الإصلاح هو اللي خـد الأرض يبقى حق الإصلاح هو اللي يجيب الفقي!

ورد المعلم قورة:

- هـو يعني الإصلاح خد الأرض حطهـا في جيبه.. ما هو بيوزعها على الفلاحين.. شوف لك فكرة تانية يا فتوح!

وقال الشيخ تمام إمام المسجد:

- ما هو ما فيش إلّا طريقة واحدة.. كل واحد فينا يحط قرشـين، ونبعت نجيب الشيخ عبد الباسط.. وما حك جلدك مثل ظفرك!

وقال فرج اللّـه :

- وإيه عرفنا بياخد كام!

ورد المعلم قورة:

- تلاتين جنيه.. غير الحلويات.. وغير المضيفة.. وغير الشـاي.. وغير النصبة اللي بتتنصب كل ليلة للسميعة!

وقال عوضين الخولي:

- يعني توصلها لخمسين جنيه.. عليّ منهم اتنين، وكيلتين دره!

وقال فرج اللّـه :

- أنا كنت محوش من مهر ستهم تلاتة جنيه.. أدفعهم وربنا يعوضنا.. أحسن ما الناس تاكل وشنا، ويقولوا كفر ممونة مضلم في رمضان!

وبدأ أهل القرية يدفع كل منهم ما يستطيعه، حتى جمعوا من بينهم خمسين جنيهًا..

وجاء الشيخ عبد الباسط وأحيى ليالي رمضان.. وتباهى «كفر ممونة» على بقية القرى والكفور.. وجاء إليه الناس يسعون كل مساء لسماع تلاوة المقرئ القاهري.. وأهل الكفر يرحبون بهم في اعتداد... اعتداد لم يشعروا به في الأعوام السابقة.. إنهم ليسوا رجال سيد القرية، ولكنهم أسياد القرية فعلًا.. إنهم هم الذين دفعوا من جيوبهم أجر المقرئ..

وكان المؤتمر الصغير هذا العام ليتخذ قرارًا في موضوع دعوة الشيخ عبد الباسط.. وقال فرج اللّـه :

- أنا السنة دي على اللضا.. القرشين اللي دفعتهم السنة اللي فاتت معرفتش أجيبهم تاني!

وقال عوضين:

- والله يا جماعة لو جيتو للحق، أنا ما عنديش حاجة من أصله.. شوية الدرة اللي عندي يدوبك يكفوا العيال..

وقال حمدان:

- ما فضلش إلّا نبيع البهيمة!

مادة محمية بموجب حقوق النشر

وقال المعلم قورة الحانوتي:

– على رأي المثل.. فقر وقنزحة.. ما قولنا كفاية علينا الراديو.. والله ما أنا دافع ولا مليم.. كلكم عارفين السنة دي فاتت زي الطين.. ربنا يمد في أعماركم.. جرى إيه في الدنيا، إلّا ما حد راضي يموت!

وقال فتوح:

– فال اللّه ولا فالك..

وقال الشيخ تمام:

– يعني يفوت رمضان كده سكيتي.. دي ما حصلتش في كفرنا من عشرين سنة.. ما تشوفوا لكم تدبيره!

وعاد فرج اللّه يقول:

– ده حتى كفر حتاتة مسهر السنة دي الشيخ الشلهوني.. عاملها بالعند فينا..

وقال عوضين:

– الشلهوني.. وده بيجي فين جنب الشيخ عبد الباسط.

وقال الشيخ تمام:

– والله فكرة.. إيه رأيكم نتفق مع أهالي كفر حتاتة، ونحط اللي معانا على اللي معاهم، ونجيب الشيخ عبد الباسط!

وقال فتوح:

– وده اسمه كلام.. طيب حيسهر عندنا. ولا عندهم.. ما هي رخرة عقده!

وقال الشيخ تمام:

- يا سيدي تتحل.. يسهر عندنا ليلة وعندهم ليلة!

وقال فرج اللّـه :

- وليلة القدر عندنا ولّا عندهم.. أهي دي رخرة مهمة!

وعاد الشيخ تمام يقول:

- يـا جماعة مـا ضيقوهاش أمال.. عندنا ولا عندهـم ما هو كله واحد.. كلنا مسـلمين وموحدين بالله.. واللي بيجـي عليه الدور في ليلة القدر تبقى السهرة عنده!

وقال المعلم قورة الحانوتي:

- أنا مش دافع!

ورد عليه عوضين في حدة:

- لا واللّـه لا أنـت دافع.. أحسـن واللّه لنحلف كلنـا بالطلاق ما نموت ولا ندفن على إيديك!

وضج المؤتمر الصغير بالضحك..

وذهـب وفد مـن كفر ممونة لمفاوضة أهالي كفـر حتاتة، واتفق الكفران على الاشتراك في دعوة الشيخ عبد الباسط لإحياء ليالي رمضان..

وعندما انتهى الشـهر المبـارك.. عقدت خمس زيجـات بين كفر ممونة وكفر حتاتة!

مادة محمية بموجب حقوق النشر

إلغاء الفرد..

من أنا؟!

أكاد أجن.. أريد أن أعرف، من أنا؟!

من هو هذا الشخص الذي أطلق عليه لفظ «أنا».. أريد أن أراه، وأتعرف عليه، وأناقشه في هذه التصرفات التي ترسم ذكرياتي، وحاضري، ومستقبلي.. تصرفاتي أنا.. ذنوبي وحسناتي أنا!!

لنتكلم في هدوء.. دعوني أسائل نفسي من جديد:

من أنا؟!

أنا مسلم.. ولكن هذه الصفة لا تميزني عن غيري من ملايين المسلمين، ولا تحدد من أنا!

أنا عربي.. مصري.. ولكن هناك ملايين من العرب المصريين.. فمن أنا منهم؟!

أنا عبد اللّه عبد التواب.. ولكن ما هو الاسم.. إنه كرقم المنزل لا يدلك على ما فيه، ولا يحدد شخصية السكان. والمساجين والجنود يستبدلون أسماءهم بأرقام، ورغم ذلك لا تتغير شخصياتهم ولا يزيد

ولا ينقص منهم شيء... إن الاسم هو العنوان، ولكني أبحث عن الموضوع.. أبحث عن «أنا»!

وأنا خريج كلية الآداب، قسم الفلسفة عام 1942.. ولكن هنالك عشرات غيري، من خريجي كلية الآداب قسم الفلسفة، وليسوا كلهم «أنا»؟!

إذن..

من أنا؟!

أرجوكم.. دعوني أتكلم بهدوء.. فأنا مقدم على اكتشاف خطير.. اكتشاف «أنا»!

ولنبدأ من جديد..

عندما ينادي أحد على عبد اللّه عبد التواب، المسلم العربي، المصري، خريج كلية الآداب.. يلتفت رأسي إلى المنادي.. فمن الذي التفت؟

إني أحس أن هناك شخصًا يسكن جسدي، يأمرني بأن ألتفت.. يأمرني بأن أدير رأسي فأديرها.

فمن هو هذا الشخص؟.. الشخص الذي يرفع أصبعي في الهواء ويحرك شفتي بقراءة الشهادتين كلما مر بي نعش.. والشخص الذي دفعني إلى الزواج واختار لي زوجتي.. والشخص الذي جعلني أختار الالتحاق بكلية الآداب.. والشخص الذي يأمرني بأن أكتب هذا الكلام.. من هو؟

إني أحس به داخل جسدي.. ولكني لا أعرفه ولا أراه.. كأن جسدي قفص من القماش السميك المعتم، يضم بين جدرانه مخلوقًا آخر.. قد يكون طائرًا، قد يكون حيوانًا مفترسًا؟!

هل تحسون بمثل إحساسي؟

هل تحسون بأن هناك شخصًا يقيم في أجسادكم، ويسمى «أنا»!

لابد أنكم تحسون به!!

إذن، فقد اتفقنا على أن «أنا» هو شخص يقيم في جسدي..

بقي أن نعرف من هو هذا الشخص!!

ولكن مهلًا.. هل هو شخص واحد؟!!

اسمعوا ما حدث لي أمس:

كان أمس هو يوم الجمعة - يوم إجازتي - وكنت جالسًا في البيت متكاسلًا، ثم إذا بي أحس بأني أريد أن أذهب إلى المقهى.. وإذا بي في نفس الوقت أيضًا أحسست بأني أريد أن أقرأ جريدة.. وفي نفس الوقت أيضًا أحسست إني أريد أن أذهب لشراء قميص من شارع الموسكي..

فهل هو شخص واحد الذي يريد أن يفعل كل ذلك في وقت واحد؟

أم هم عدة أشخاص؟

لا بد أنهم عدة أشخاص.. واحد يريد أن يذهب المقهى، وواحد يريد أن يقرأ الجريدة، وواحد يريد أن يشتري قميصً.!!

وأحسست أن هناك معركة داخل جسدي بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة، كل منهم يريد أن يتغلب على الآخر، ليسيطر عليّ.. على جسدي.. ويجعلني أفعل ما يريد..

وقد بقيت طول فترة المعركة في مكاني.. لا أتحرك.. لا أذهب إلى المقهى، ولا أقرأ ولا أشتري قميصًا.. كنت في انتظار انتهاء المعركة، لأستسلم للفائز فيها..

ولكني فجأة، أحسست بشخص رابع يدخل في المعركة.. شخص يريد أن يصلي..

وازدادت المعركة نشاطًا.. ثم انتصر الشخص الذي يريد أن يصلي.. فوجدت ساقي تتحركان وقمت من مكاني، ووقفت أصلي.. ولكن الثلاثة الآخرين لا يزالون في جسدي يشاغلونني أثناء الصلاة، فكنت وأنا أصلي، أفكر في الذهاب إلى المقهى، وقراءة الجريدة، وشراء قميص!!

إذن.. «أنا» هو تعبير يطلق على عدة أشخاص..

هل تفهمونني؟!

وهل تحسون بمثل ما أحس به؟!

سأروي لكم حادثة أخرى..

لقد كنت في مسجد الحسين منذ أيام.. وفجأة رأيت جارنا السيد محمد مدبولي صاحب دكان البقالة يدخل ويقف للصلاة.. ويصلي في حرارة وابتهال.. ثم يجلس مستندًا إلى عامود منزوٍ من أعمدة الجامع، ويفتح المصحف بين يديه ويأخذ في تلاوة القرآن الكريم.. وأخذت أراقبه وأنا أكاد أطق غيظًا..

إني أعرف هذا المدبولي جيدًا.. إنه لص كبير يسرق زبائن دكانه بجشع، ويغش في الميزان.. وهو في بيته وحش مجرم يضرب زوجته كل يوم علقة

مادة محمية بموجب حقوق النشر

حتى يسيح دمها.. فماذا يفعل هنا في الجامع هذا اللص المتوحش.. هذا المنافق الكبير؟!

ولكن..

لماذا أتهم مدبولي بالنفاق؟!

لماذا لا يكون مدبولي مثلي في داخله عدة أشخاص.. شخص يصلي، وشخص يسرق الناس، وشخص يضرب زوجته..

إن حالة مدبولي أوضح من حالتي، لأنك تستطيع أن ترى أشخاصه الثلاثة بعينيك.. ترى الشخص المتدين في الجامع، وترى الشخص اللص في دكان البقالة، وترى الشخص المتوحش في البيت!

والنتيجة من كل ذلك؟

النتيجة التي وصلت إليها - على قدر جهدي - هي أن «أنا» ليس واحدًا، إنما «أنا» عدة أشخاص..

«أنا» ليس «فردًا».. ولكن «مجتمع»!!

أي أن الإنسان يعيش في «مجتمع» حوله و«مجتمع» آخر في داخله..

ليس هناك «واحد» أبدًا إلّا اللّه ..

إنما الإنسان الفرد هو «عدد»، هو «مجتمع» يعيش في جسد واحد..

أي إني أستطيع أن أقول: «نحن عبد اللّه عبد التواب»، ولا أكون مغاليًا، ولا مغرورًا..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

والمجتمع الذي يعيش في جسدي، ويطلق عليه لفظ «أنا»، هو بلا شك مجتمع مرتبط بالمجتمع الكبير الذي أعيش فيه.

ولنبحث حالتي التي شرحتها لكم، من جديد، حتى نكتشف مدى ارتباط «مجتمع أنا» بالمجتمع الكبير الذي يضم خلق اللّه كلهم..

إن الشخص الذي يعيش في جسدي ويريد أن يذهب إلى المقهى، هو شخص يعبر عن حاجة جماعية إلى الاختلاط بالناس..

والشخص الذي يريد أن يقرأ جريدة، شخص يعبر عن حاجة جماعية بمعرفة أخبار الناس وآرائهم..

والشخص الذي يريد أن يشتري قميصًا، هو شخص يخضع للمجتمع الذي حدد القميص كلباس، ويخضع للمجتمع الذي قرر أن يقوم مصنع بضاعة القمصان، وأن تقوم طائفة اسمها «طائفة التجار» ببيع القمصان... و... و... إلخ.

والشخص الذي يريد أن يصلي، يخضع لدين مجتمع يضم الملايين..

إذن..

أنا «مجتمع» أعيش في «مجتمع»!

لا واحد..

لا فرد..

هل تدرون ماذا اكتشفت أيضًا؟!

لقد اكتشفت أن ليس هناك مشاكل فردية.. ليست هناك مشكلة فقر فرد، أو مـرض فرد، أو خـوف فرد، أو حرية فرد.. لأن ليس هنـاك فرد.. إنما هي مشاكل كل مجتمع.. لأني «مجتمع»!!

أليس هذا الكلام معقولًا؟!

إني أقول هذا الكلام دائمًا، ولكني عندما أقوله يتهمونني بالجنون!!

إني أعرفهم هؤلاء الذين يتهمونني بالجنون!..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

مادة محمية بموجب حقوق النشر

أهـل الجنـة..

كانت الروح تصعد إلى السماء، وجلة خائفة..

إنها مقدمة على ساعة الحساب..

ترى ماذا يكون مصيرها: الجنة أم النار!!

وأخذت الروح الحائرة تراجع نفسها.. ماذا تقول لقضاتها.. وماذا يقول لها قضاتها؟!

واشـتد بهـا الهلع.. إن لها أخطـاء.. ولكنها أخطاء طفيفـة.. هينة.. فهل يحاسـبونها على هـذه الأخطـاء.. هل تدخل النـار لمجرد هـذه الأخطاء.. لا مسـتحيل.. إن هـذه الأخطاء لم تؤذ أحدًا في الدنيـا. بل لم تكن أخطاء.. مجرد نزوات!!

واصطف فريق من الملائكة كغلائل النور، يسـتقبلون الروح الصاعدة.. وابتسموا لها ابتسامة حلوة كشق الفجر.. وتقدم منهم ملاك جميل.. كتمثال من السـكر المكرر.. وأخذ بيد الروح وقادها في أبهاء السـماء، إلى أن دخل بهـا بهـوًا شاسـعًا ذا عمد من شـعاع.. وسـمعت الـروح صوتًـا ضخمًا، في ضخامته قوة الرحمة، ورنة الغفران:

- يا عبد اللّـه .. قدم ما بين يديك..

وارتجفت الروح، وخرت ساجدة..

وصاح الصوت الضخم:

- قم يا عبد اللّـه .. وواجه قضاتك بنفس مطمئنة!

وقامت الروح وهمست في صوت مرتعش:

- إني في حمى أرحم الراحمين..

وصاح الصوت:

- ما ديانتك؟

وقالت الروح:

- مسلم!!

وصمـت الصوت الضخم برهة، وقلب بين يديه صفحات سـجل كبير، ثم عاد يتكلم:

- ما هي أخطاؤك؟

وقالت الروح في وجل:

- ليس لي أخطاء.. لقد عشت لا أؤذي أحدًا من أهل الأرض!

وسـكت الصوت برهة أخرى، ودقق في صفحة السـجل الكبير، ثم عاد يتكلم:

- لقد شربت الخمر!

مادة محمية بموجب حقوق النشر

وقالت الروح في رجفة:

- لقد عشت لا أؤذي أحدًا من أهل الأرض!!

وتكلم الصوت:

- لقد عرفت النساء!!

وقالت الروح:

- لقد عشت لا أؤذي أحدًا من أهل الأرض!!

وتكلم الصوت:

- لقد فرطت في صلاتك وصيامك..

ورددت الروح في خوف:

- لقد عشت لا أؤذي أحدًا من أهل الأرض!!

وسكت الصوت فترة طويلة، وحاولت الروح أن ترفع عينيها لترى الصوت، فغشيها نور شديد لم تر خلاله شيئًا..

ثم عاد الصوت يتكلم.. ويصدر حكمه:

- الجنة!!

ورددت السماء صيغة الحكم، كأن ملايين الزغاريد انطلقت في أبهائها.. وتقدم ملاك صغير، وصحب الروح في موكب من نور معطر، إلى جناح في الجنة..

وتلفتت الروح فوجدت حولها فريقًا من أهل الجنة يشع من وجوههم بشر الصلاح.. وسألتهم الروح:

- هل أنتم مسلمون؟

- لا..

- مسيحيون؟

- لا..

- يهود؟

- لا..

- ما أنتم؟

- إننا هنا منذ عصر الجاهلية.. قبل ظهور الأديان.. وقد دخلنا الجنة لأننا عشنا لا نؤذي أحدًا من أهل الأرض!

كـل عمـري..

ما هو عمري؟

إن شـهادة الميلاد تؤكد إني في الخامسـة والثلاثيـن.. ورغم ذلك فإني أحـس أحيانًـا بأنـي فـي السادسـة عشـرة، وأحيانًا أحـس أني في الخامسـة والعشرين، وأحيانًا أحس إني في الستين..

إنـي أحس بكل عمري فـي كل يوم.. وعمري يتصـارع بعضه مع بعض داخل نفسـي.. كأن في داخلي صبيًا في الخامسة عشرة، وشابًا في الخامسة والعشـرين، ورجلًا في الخامسـة والثلاثين، وشـيخًا في الخمسـين، وكهلًا فـي السـتين.. و.. و.. وكلهـم يتناقشـون بعضهـم مـع بعـض، وأحيانًا تمتد مناقشـاتهم إلى حد الصراخ.. كلٌّ منهم يحاول أن يملي عليّ تصرفًا معينًا.. الصبـي يريد أن يتنطط ويلعب البلي.. والشـاب يريد أن يعاكس الفتيات في الشارع.. والرجل يريد أن يبدو محترمًا ويشتري كرافاته «سولكا» يرشق فيها دبوسًا.. والشيخ يريد أن يستريح، وينام.. و.. و..

وفـي هـذا الصباح خرجـت من بيتـي متجهًا إلـى عملـي.. كنت أحس فعـلًا إني فـي الخامسـة والثلاثين من عمـري.. وفجأة رأيـت قطعة صغيرة مـن الطوب ملقاة على الأرض.. فإذا بالصبي الذي في داخلي يهم بأن يرفع قدمـي ويشـوط قطعة الطوب ببوز حذائـي.. وإذا بالرجل الـذي في داخلي

مادة محمية بموجب حقوق النشر

يستوقفه وينهره قائلًا: «عيب يا ولد».. وإذا بالشيخ - الذي في داخلي أيضًا - يسخر من الاثنين ويضحك عليهما.. ثم تغلب الرجل على الصبي، وخطوت فوق الطوبة دون أن أشوطها ببوز حذائي، فإذا بي أسمع صراخًا داخل نفسي.. صراخ الصبي.. كأنه يبكي في حرقة لأني منعته من أن يشوط الطوبة.. وضعفت أمام هذا الصراخ، وعدت إلى الطوبة وشطتها ببوز الحذاء.. وإذا بالرجل الذي في داخلي يغضب، ويشيع في نفسي لونًا من الندم العميق، والخجل من تصرفات هذا الصبي..

إني لم أكن سعيدًا عندما تخطيت قطعة الطوب دون أن أشوطها.. ولم أكن سعيدًا عندما شطتها.. لأني لم أكن أستطيع أن أرضي الرجل والصبي في وقت واحد..

وليس هذا الاحساس جديدًا عليّ.. إني طول عمري أحس بكل عمري.. حتى عندما كانت شهادة ميلادي تؤكد إني في الخامسة عشرة.. حتى في هذه السن كنت أحس بأن في داخلي شابًا ورجلًا وشيخًا.. كنت أنط الحبل مع الصبيان، وبعد دقيقة واحدة أقف أمام المرآة وأحاول أن أحلق ذقني لأرضي الشاب الذي في داخلي، ثم كنت أحادث أختي وأشخط فيها بصوت أتعمد أن يكون غليظًا، لأرضي الرجل الذي يعيش في داخلي، ثم كنت أغار على أمي كأني شيخ في عمر أبي.. مع ملاحظة أن فارق العمر بين أمي وأبي كان كبيرًا!!

يبدو أننا نولد بعمرنا كله.. إن الإنسان يولد وهو يحمل في نفسه كل شخصياته التي يتطور فيها إلى أن يموت.. أي شخصية الصبي، وشخصية الرجل... و... و... إلخ. وعندما تمر به السنون لا يفقد هذه الشخصيات،

ولكنه يفقد القدرة على ممارسة نشاط كل شخصية بعد الأخرى.. فأنت في الستين من عمرك لا تفقد شبابك، ولكنك تفقد القدرة على ممارسة نشاط الشباب.. وتظل محتفظًا بالشباب نفسه، وتظل تحس به، وتحس بالحسرة لأنك لا تستطيع - من الوجهة الصحية والفسيولوجية - ممارسته..

ومنذ شهر رأيت فوزية لأول مرة على شاطئ البحر.. إنها فتاة في السادسة عشرة، جميلة، نضرة، شهية كحبة القوطة.. وتعلقت بها عيناي.. وتجمع كل عمري يتصارع حولها..

قال لي الصبي: اذهب والعب معها الكورة.. وقال لي الشاب: ادعها للرقص.. ثم قبلها..

وقال لي عمر الثلاثين: انظر إلى ساقيها.. ونهديها.. اخلع عنها الثوب.. واغتصبها..

وقال لي عمر الخامسة والثلاثين: تزوجها.. إن أقرب الطرق إليها هو الزواج!

وصاح عمر الستين: إياك أن تتزوجها.. إنها عندما تصل إليّ ستكون هي في الواحدة والثلاثين من عمرها.. في عز أنوثتها، وسأكون أنا عاجزًا عن ممارسة نشاط الرجولة.. فأجن.. وأموت وفوق رأسي قرنان.. لا.. لا تتزوجها يا مجنون.. فقط ابتسم.. لا تبتسم لها.. ولكن ابتسم!

وظل كل عمري يتصارع حولها، ويناقش بعضه بعضًا، ويمسك الصبي بخناق الشاب، ويمسك الشاب بخناق الرجل، والرجل يكاد يقتل الشيخ، والشيخ يكاد يقتل الرجل.. وأنا.. أنا جالس لا أتحرك، وعيناي معلقتان

بفوزية.. دون أن أفعل شيئًا، لم أكن أستطيع أن أفعل شيئًا.. لو أرضيت عمر الخامسة عشرة، فسأغضب باقي عمري، وأتعذب بغضبه.. ولو أرضيت عمر الثلاثين، فسأغضب عمر الخمسين، أو عمر الستين.. أو.. أو.. إني لا أستطيع أن أفعل شيئًا إلّا أن أظل مستمعًا إلى مناقشات عمري بعضه مع بعض..

إني أحب فوزية.. إني أحبها بكل عمري.. ولكني لم ألعب معها الكرة، ولم أقبّلها، ولم أغتصبها، ولم أتزوجها، ولم أبتسم.. ولكني قضيت شهرًا مصلوبًا أمامها على صليب من عمري، وعدت لأكتب هذه القصة الفلسفية.. لعل الفلسفة تنسيني عمري.. عمري كله!!

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الإنسان.. في السماء!

مات..

ولـم يحـس أحـد بموتـه.. ذهـب دون أن تترك أقدامـه أثرًا فـرق طريق الحياة.. ولو أن كلبًا نفق في الطريق لتجمع الناس حوله، وتهامسـوا، وربما انقبـض قلب بعضهـم، وربما اسـتدعوا منـدوب جمعية الرفـق بالحيوان.. ولكن من سـوء حظ «عبد المتجلي» - وهذا هو اسـمه - إنه ينتمي لنوع من المخلوقات كثيرة العدد.. عددها أكثر من عدد الكلاب. ومن عدد البغال.. ولـن يحدث شـيء إذا نقص هذا العدد الكبير واحـدًا.. لن يتنهد أحد.. ولم يهتم أحد..

وهكذا مات عبد المتجلي في صمت.. كما عاش حياته كلها في صمت.. لم يشـك، ولم يتأوه، ولم يسـتغث حتـى باللّه.. إنما ابتلـع آلامه وعذابه في صمت.. إلى أن سـمع صوت عظامه وهي تتفـكك، وأحس بصدره يضيق، وأنفاسه تخمد.. وصمت أيضًا.. لم يعرف أنه يموت.. إلى أن مات!

وكل مـا حـدث بعـد ذلـك أن تضايـق الجيـران، سـكان حـي زينهـم، مـن الرائحـة العفنـة التـي تنبعث مـن الجحـر الضيـق الحقير الذي يسـكنه

«عبد المتجلـي»، فاقتحموه.. ووجدوا الرجل ميتًـا، فحملوه فوق أكتافهم، لا لأنـه مـات، بل ليتخلصوا من الرائحة العفنـة.. ودفنوه في حفرة في مكان من الجبل القريب.. حفرة لا يميزها لوح من الحجر أو من الخشـب يحمل اسـم «عبد المتجلـي» ويحتفظ بذكرى عذابه في الدنيـا.. حفرة لم تلبث أن أصبحت قطعة من طريق يدوسه الناس بالأقدام..

هكذا مات عبد المتجلي..

في صمت.. وبلا مناقشة!

ولكنـه مـا كاد يصـل إلى السـماء حتى اسـتقبل بضجة لم يسـمع مثيلها فـي الدنيا.. وتجمـع فريق من الملائكة ينثرون فوق رأسـه أكاليل من النور، وينشدون من حوله أنغامًا أعذب من كل ما تذيعه محطة الإذاعة، ويعدون له عرسًـا من الذهب الموسد بالحرير، في أبهى قصر من قصور الجنة.. ولكن فريقًـا آخر من الملائكة لم يشـتركوا في هذه الفرحة، ولم يرحبوا باسـتقبال عبد المتجلي، إنما وقفوا يتهامسون، ويتناقشون وينظرون إلى عبد المتجلي فـي رثاء يـكاد يكون ازدراء.. وعندمـا مر بهم، أولوه ظهورهم، واسـتغرقوا في مناقشاتهم..

وسأل أحد الصالحين من أهل الجنة:

- ما هذه الضجة؟!

وأجابه ملاك:

مادة محمية بموجب حقوق النشر

- ألا تدري.. لقد وصل عبد المتجلي!

وقال الرجل الصالح:

- عبد المتجلي!! من هو عبد المتجلي هذا؟! لم أسمع بهذا الاسم بين الأنبياء، أو الصالحين، أو الشهداء!!

وقال الملاك:

- إنه إنسان كنا جميعًا في انتظار وصوله إلى السماء، فهو يمثل مشكلة يدور حولها خلاف كبير.. هل هو يستحق الجنة، أم النار؟

وقال الرجل الصالح:

- هل هو كافر؟

وقال الملاك:

- لا..

وقال الرجل الصالح:

- مؤمن إذًا!

قال الملاك:

- لا..

قال الرجل الصالح:

- وقائمة ذنوبه؟

قال الملاك:

- ليست له ذنوب!!

قال الرجل الصالح في تعجب:

- إذن له حسنات؟!

وابتسم الملاك:

- لا.. ليست له حسنات!!

قال الرجل الصالح، وقد استبدت به الحيرة:

- كيف قضى حياته الأولى؟

قال الملاك:

- في صمت!!

قال الرجل الصالح:

- وما حكم الصمت!

قال الملاك:

- هـذا هو سـر الضجة.. إن الملائكة مختلفـون بعضهم مع بعض، وقد أرادت مشـيئة اللّـه أن تشـكل محكمة يقدم أمامها عبد المتجلي، وسيدافع عنـه ملاك، ويتولى الاتهام ملاك آخر.. إن المحاكمة علنية، والحضور مباح لأهل الجنة..

وعقدت المحاكمة..

فتحت الجلسة..

وتقدم عبد المتجلي، وهو صامت يرتجف، ولا يدري من أمره شيئًا.. وحاول أن يرفع عينيه إلى قضاته فبهره النور الذي يشع من حولهم.. فأرخى عينيه سريعًا.. ووقف صامتًا.. مرتجفًا.. لا يدري..

وارتفع صوت ملاك الدفاع.. صوت رقيق رائق كنغم الكمان:

- يا حضرات القضاة.. لقد عاش عبد المتجلي متدثرًا من العذاب في معطف من الصمت..

وقاطعه ملاك الاتهام في صوت جميل، ولكنه عريض كصوت السكسفون:

- وما هذه التشبيهات الدنيوية.. إننا لا نريد بلاغة!

وعاد ملاك الدفاع:

- إن هذا الرجل تحمل من العذاب أكثر مما تحمل يعقوب، ورغم ذلك لم يعبر عن شكواه و...

وقاطعه صوت كبير القضاة، صوت رهيب:

- تكلم في الوقائع.. الوقائع من فضلك!

وابتسم ملاك الدفاع وعاد يقول:

- لقد ولد عبد المتجلي فقيرًا، وماتت أمه بعد أن أرضعته، وتزوج أبوه السكير من امرأة انتصر عليها الشيطان، فعذبته.. كانت تكويه بالنار..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

وكانت تلقي له الخبز الجاف بينما تأكل هي اللحم والكنافة.. وكانت ترسله ليعمل عند الحداد ينفخ في النار ثم تستولي على أجره الضئيل.. ورغم ذلك لم يشك ولم يتأوه ولم يعترض.. ولم يرفع إلينا أي دعوة أو استغاثة.. وجاء أبوه المجرم في إحدى ليالي الشتاء وجذبه من شعره وألقاه خارج البيت.. فلم يعترض.. إنما سار في الطريق.. جاع ولم يحاول أن يأكل.. وبرد ولم يحاول أن يتدفأ.. إنما كان يقدم نفسه لأي عمل، فإذا وجد عملًا لا يسأل عن الأجر.. وإذا لم ينقد أجرًا لا يطالب بشيء.. إنه صامت دائمًا.. صامت.. صامت.. وحدث مرة أن صدمته سيارة فوقع على الأرض مشجوج الرأس.. فلم يصرخ، ولم ينظر إلى السيارة التي صدمته.. وأخذه الرجل صاحب السيارة، وجعله خادمًا في الجاراج، وداوى جرح رأسه بأن وضع فوقه حفنة من الطين.. وبقي عبد المتجلي يخدم في الجاراج، ويؤدي بجانب عمله كل ما يأمره به السيد أو أحد من حاشية السيد.. ثم أمره السيد بأن يتزوج إحدى الخادمات، فتزوجها.. ورفضت الخادمة أن يقربها أو يضاجعها، ورغم ذلك فقد وجد عبد المتجلي نفسه أبًا بعد خمسة أشهر.. فلم يعترض.. ولم يثر.. ولم يرفع رأسه إلينا في السماء ليتساءل عن حكمة اللّه .. ثم طرده السيد بلا سبب ودون أن ينقده أجرًا طول مدة خدمته.. وهجرته زوجته.. وعاش مع الولد الصغير المنسوب إليه.. يسير في الحياة.. ويقوم بأي عمل.. دون أن يعترض.. ودون أن يطالب.. بل دون أن يشحذ.. تصوروا يا حضرات القضاة.. إنه لم يشحذ أيضًا.. وعندما بلغ الولد الصغير الخامسة عشرة من عمره.. طرد عبد المتجلي من الجحر الحقير الذي كانا يقيمان فيه.. فلم يعترض عبد المتجلي.. ولم يتصد لإرادة

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الولد الصغير الذي رباه.. إنما سار في الحياة بلا هدف، ولا أمل، ولا رأي، ولا شكوى، ولا اعتراض، ولا...

وهنا انتفض ملاك الاتهام وقال بصوته العريض:

- يا حضرات القضاه.. إني لا أعترض على كل هذه الوقائع.. إني أعترف بها، وعلى استعداد لأن أزيدكم منها.. وهذه الوقائع بالذات هي عناصر اتهامي لهذا الرجل.. وإني أتهم هذا الرجل بأنه تحدى قدرة اللّه وحاول تعطيلها.. لقد وهبه اللّه صوتًا ليشكو به إذا حدث له ما يستوجب الشكوى.. وأن يصرخ إذا كان في حاجة إلى الصراخ.. ووهبه عقلًا ليدير شئون نفسه في سبيل إسعادها.. ووهبه مجتمعًا يعيش فيه ويتعاون معه.. ووهبه إرادة يتحدى بها الظلم ويدافع عن نفسه.. ولكن هذا الرجل المسمى «عبد المتجلي» عطل قدرة اللّه في خلقه.. لم يستعمل صوته، ولا عقله، ولا مجتمعه، ولا إرادته.. إنه بذلك يتحدى اللّه .. وإني أحكم على هذا الرجل بالجحيم!

ودوّى صوت القاضي الرهيب:

- ليس من حقك أن تحكم هنا بشيء.. إننا لسنا محكمة دنيوية.. فقط قل رأيك.. واشرح وجهة نظرك!

وقال ملاك الاتهام وقد خفت صوته:

- رأيي أن الامتناع عن استعمال قدرة اللّه التي وهبها للإنسان جريمة توازي جريمة الكفر باللّه..

وصمتت الأصوات.. وساد جو رهيب قاعة المحكمة التي أقيمت جدرانها من النور..

وعبد المتجلي واقف صامت.. مرتجف.. لا يدري.. وإن كان قد خيل إليه أنه المقصود بكل ما قيل..

ودوّى صوت رئيس المحكمة:

- يا عبد المتجلي..

ولم يجب عبد المتجلي.. خيل إليه أن الصوت ينبعث من داخله، لا ممن يناديه!

وعاد الصوت يدوّي:

- يا عبد المتجلي.. ارفع رأسك!

ورفع عبد المتجلي رأسه، وملأ النور عينيه.. وسمع صوت القاضي يقول له:

- قل لنا يا عبد المتجلي.. ماذا تشتهي عندما تكون في الجنة؟.. ماذا تطلب.. تكلم.. لا تخف يا عبد المتجلي؟..

وقال الإنسان بعد تردد:

- هل أستطيع أن أطلب أي شيء..

قال القاضي في صوت مشجع:

- أي شيء.. كل ما تريد تحت أمرك!

وقال الإنسان:

- صحيح؟!

ودوّت القاعة بأصوات الملائكة من الفريق المؤيد:

- صحيح.. صحيح.. تكلم.. اطلب ما شئت.

وقال الإنسان وقد ارتفعت لأول مرة ابتسامته، وتحلّب ريقه:

- أطلب طبق فول بالزيت كل صباح.. ورغيف عيش.. ثم استدرك قائلًا بسرعة:

- رغيفين!!

ووقع على القاعة صمت مخيف.. ثقيل.. ونكس الملائكة المؤيدون رؤوسهم خجلًا.. ولووا شفاههم ازدراء لهذا الشيء الذي خلقه اللّه على الأرض.. وأشاح ملاك الدفاع برأسه كأنه ندم على الدفاع عن هذا المخلوق.. وابتسم ملاك الاتهام ابتسامة الشماتة والنصر.. وساءل عبد المتجلي نفسه: «ترى.. هل طلبت كثيرًا؟!!».

ومالت رؤوس القضاة بعضها إلى بعض، وأخذوا يتهامسون.. وقال كبيرهم:

- لا مفر.. الجنة!!

وسأل أحد القضاة:

- والحيثيات؟!

قال كبير القضاة همسًا:

- الرحمة!!

وصدر الحكم بإدخال عبد المتجلي إلى الجنة..

ولم يفرح الملائكة المؤيدون.. ولم يقيموا احتفالًا، ولا أنشدوا ترتيلًا..

دخل الإنسان الجنة.. رثاء له!!

مادة محمية بموجب حقوق النشر